المثقف العربي بين واقع الاستشراق وحلم الاستغراب (حسن حنفي نموذجًا)

البخاري حمانه(*)

أولًا: واقع الاستشراق

لا يزال المثقف العربي والإسلامي، على حد سواء، مستقطبين مثل أسلافهما، خاصة في القرنيين الماضيين، بظاهرة الاستشراق. ذلك ما تؤكده على أي حال العديد من الكتابات والملتقيات العربية والإسلامية التي لا تزال تخصص، ومنذ بداية القرن المنصرم، على وجه، التحديد وإلى اليوم، لهذه الظاهرة، والتي لا نعتقد أن ملتقانا هذا سيكون أخرها.

وإذا كان البعض قد يقول أن مثل هذا الاستقطاب أمر طبيعي، فالغرب تتلمذ علينا بالأمس فعلا...ولكنه سرعان ما تجاوزنا وتجاوز ثقافتنا وعلمنا وحضارتنا ليُحولنا، في أقل من ثلاث قرون، لا إلى تلاميذ نجباء مثلما كان، بل إلى تابعين له ولكل إنجازاته الثقافية والعلمية والحضارية والاقتصادية والسياسية...الخ.

ولأن الاستشراق ليس في النهاية سوى واحد من بين إفرازات عديدة أخرى، أكبر وأخطر، لتلمذتنا تلك على الغرب الأوربي، فانه قد امتد

(*) جامعة وهران السانيا، قسم الفلسفة، الجزائر.

بالتالـــي، ومـــند تلك التلمذة، في الذات.. وفي العقلية العربية والإسلامية امتدادا جعله لا يتمظهرأو في النهاية من خلال تلك الذات إلا لكي يرسخ فيها، وعلى وقع تقدمه العلمي المذهل، تلك الصورة التي نجح في رسمها لها...والتي تدينها...ولكنها لا تستطيع إنكار الكثير من ملامحها، صورة حولـــتها بالتالـــي إلى أسيرة لهذا الاستشراق والى عاشقة له في الوقت ذاته[1].

بذلك تحول الغرب لدينا إلى نموذج نمقت نزعته العدائية الاستعلائية التمركـــزية[2]، ولكنـــنا نعجـــب به وبإنجازاته العلمية والتقنية، في نفس الـــوقت، نمـــوذج متحـــرك ومتجدد باستمرار..تجددا لا يوهمنا أننا قد أمسكنا، أخيرا به إلا لكي يكشف لنا أنه قد أصبح منا أكثر بعدا...

وبـــذلك أيضا تحولت كل مقاربة عربية وإسلامية للغرب الأوروبي عامـــة، وللاستشراق خاصة، وهو الذي يعنينا هنا، إلى مقاومة معكوسة للـــذات، ذاتـــنا الباحـــثة عن تأكيد نفسها، وسط تمزقها ذاك بين هاجس الأصـــالة...وبـــين التحديات المتعددة والمتجددة لتلك الحداثة الأوروبية الغربية.

---

(1). إبـــراهيم محمـــد محمـــود: " كيف ينظر المثقف العربي إلى الاستشراق " وقد اســـتفدنا مـــن هـــذا البحث كثيرا، خاصة في الجزء الأول منه، مجلة المستقبل العرب، العدد ٧، ١٩٩٠.

(2). عـــبد الله ابـــراهيم: المركزية الأوروبية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ١٩٩٧.

وبذلك أخيرًا، انقلب كل جدل حول الاستشراق إلى جدل حول ذاتنا العربية الإسلامية المحاصرة داخل أسوار ذلك الاستشراق.. والتائهة وسط مفاهيمه وطروحاته ومناهجه وأهدافه...

من هنا سر ذلك التخبط الذي لا تزال تعرفه الدراسات العربية والإسلامية للاستشراق. ومن هنا كذلك تلك السجالات حوله.. وحول تعريفه، و مفهومه، ومضمونه..وأهدافه.

أ- تعريف الاستشراق:

فعل مستوى التعريف لا يزال الاستشراق يبحث،نتيجة لتماهيمه ذاك مع الذات العربية والإسلامية ،عن تعريفه يلتقي عنده كل الباحثين العرب والمسلمين على اختلاف منطلقاتهم الإيديولوجية...

ولأن كل تعريفه إنما هو تحديد، ولأن التحديد لا يكون آلا في الزمان والمكان، فإن الاستشراق، باعتباره، من الوجهة أقرب إلى المصطلح "الفولكلوري " منه إلى المصطلح العلمي[1]، وباعتباره، من جهة أخرى، وليد عوامل متعددة ومختلفة زمانا ومكانا، فان كل محاولة لتعريفه..تتحول بالتالي إلى ضرب من البعث....

(1). ابراهيم محمد محمود: المرجع السابق.

وذلك نظرا لتماهيمه ذاك مع الذات العربية والإسلامية، وهو التماهي الـذي لا يجعلـه يتحدد أمامها كموضوع..إلا لكي يبرز في نفس الوقت كذات مرتبطة ومتظهرة بها ومن خلالها[1].

إن هـذا الـتداخل هو الذي يفسر،إلى حد كبير،فشل المثقفين العرب والمسلمين في الاتفاق على تعريف للاستشراق.

فبـين تعـريف الإسـلامي محمـد البهي، وغيره من الإسلاميين، للاستـشراق،الذي يطابـق بنـيه وبين الاستعمار والتبشير[2]، وحصر الليبرالـي، إدوارد سعيد، له في "تدريس الشرق..أو في الكتابة عنه..أو الـبحث فيه "[3]، والماركسي، صادق جلال العظم، الذي لم ير فيه سوى نتاجا للبرجوازية الأوروبية في العصر الحديث...[4]، يظل الاستشراق، وهو المتعدد في مفهوم ومضمونه وأهدافه، تعدد وتنوع مراحله التاريخية وأمكنـته الجغرافية، يبحث عن مثل ذلك التعريف...الذي يلتقي عنده كل أولئك المثقفين العرب والمسلمون.

---

(1). المرجع السابق.

(2). محمـد البهـي: "المبشرون و المستشرقون و موقفهم من الإسلام " مجلة الفكر العربي، أفريل ١٩٨٢.

(3).ادوارد سـعيد، الاستشراق : المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة عربية لكمال إبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الثالثة، ١٩٨١ ص ٣٨.

(4). صـادق جـلال العظم: الاستشراق و الاستشراق معكوسا، دار الحداثة، بيروت ١٩٨١، ص ٩ – ١٠.

ولأن الاستشراق لم يكن، تاريخيا أو جغرافيا،واحدا فإننا نقول أنه إذا كان صحيحا أن جزءا كبيرا منه ومن ممثليه قد وجد، خاصة منذ الحروب الصليبية، إن لم يكن قبلها بكثير، في الاستعمار الأوربي المباشر أو غير المباشر للعديد من الأقطار العربية الإسلامية،دعما قويا مثلما وجد هذا الأخير كذلك دعما قويا من طرف مثل ذلك الاستشراق وأولئك المستشرقين،فان ذلك لا يجب أن يعني أن كل الاستشراق كان مدعما للاستعمار[1].

يكفي أن نذكر هنا لا فقط، بالاستشراق الذي عرفته الأندلس العربية الإسلامية وإيطاليا وفرنسا قبل عصر النهضة الأوربية، والذي لا علاقة له تذكر تماما مثل الاستشراق الذي يعرفه اليوم العالم العربي والإسلامي، بالاستعمار أو التبشير، بل نذكر كذلك بمواقف العديد من المستشرقين الذين ناهضوا بالأمس، وبشجاعة، الاستعمار في شكله الجديد، وهي المناهضة التي وصلت بالبعض منهم، إلى تبني قضاياه وإلى اعتناق دينه والى التمجيد العلني لرسوله (صلى الله عليه وسلم)[2].. ولكل رموزه الأخرى.

كما أن الاستشراق ليس مجرد تدريس للشرق، أو مجرد الكتابة عنه أو البحث فيه، فضلا عن أن يكون مثل ذلك التدريس والبحث حكرا على

---

(1).محمد العفيفي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، الجزء الأول، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠، ص ٧، ص ١٥٨ إلى ٤٦٧

(2). نفس المرجع السابق.

البورجوازية الأوروبية دون غيرها من الطبقات الاجتماعية الأوروبية الأخرى[1]، بل انه كذلك وفي الوقت ذاته "الكشف من طرف المثقفين الأوروبيين عامة، الذين اتخذوا الشرق (بمعنى العالم العربي والإسلامي،مشرقه ومغربه)، كموضوع لدراساتهم تلك، عن مظاهر الحضارة الإسلامية وعن التراث العربي الإسلامي، وذلك من خلال البحث عن النصوص المفقودة وجمعها وتحقيقها، ومن خلال ترميم المعالم الأثرية المندثرة واعادة بنائها.. وصولا إلى إخضاعها للدراسة المقارنة والى التعريف بها عالميا بعد ذلك كجزء لا يتجزأ من التراث الإنساني "[2].

ب- مضمون الاستشراق:

وعلى مستوى المضمون فإنه إذا كان المفكر الإسلامي أنور الجندي قد حصر، مثل محمد البهي وغيره من الإسلاميين،مضمون الاستشراق في التهجم على الإسلام وعلى نبيه محمد،صلى الله عليه وسلم،وذلك من خلال التحريف والافتراء والكذب على الإسلام وعلى نبيه[3]، وإذا كان الليبرالي د.علي سامي النشار قد وجد في ذلك المضمون توطيدا لانتصار

(1).نفس المرجع السابق

(2).أنور الجندي : الفكر العربي المعاصر، مطبعة الرسالة، القاهرة (ب. ت) ص ٢٧٤.

(3). علي سامي النشار: " الحركة الصليبية و أثرها على الاستشراق الغربي " الفكر العربي، العدد ٥، يناير ١٩٨٣، ص ١٢٩.

الغـــرب المنهـــزم..وهزيمة الإسلام المنتصر[1]، فان الماركسي،سابقا، د.طـــيب تيزينـــي قد اعتبره نتاجا للقصور المعرفي النظري للمركزية الأوروبـــية (l'eurocentrisme) الغـــربية القـــائم على تضخيم أهمية حـــضارة الغرب على حساب الحضارات الأخرى وعلى رفض المفهوم العلمي الاجتماعي لوحدة الثقافة الإنسانية بالتالي[2].

إن مـــثل هذه الأحكام الاطلاقية على مضمون الاستشراق حين تضع هـــذا المضمون في سلة واحدة، دونما مراعات تذكر لاختلاف الأزمنة والأمكـــنة، لا تلتقـــي،عن وعي أو عن غير وعي، مع طروحات دعاة الـــتقاطع الكلي بين الشرق والغرب (كيبلينغ ت R.Kipling)، إلا لكي تقـــصر،عمليا،دراسة الإســـلام وحـــضارته علـــى المسلمين فقط دون غيـــرهم..وهي الدراسة التي نعلم مدى هشاشتها وضعف وزنها العالمي بالنسبة للدراسات الاستشراقية لنفس المواضيع.

لـــذلك فان مثل هذه الأحكام الاطلاقية تؤكد بالتالي، ودون أن تدرك، تلك التهم الباطلة ضد الإسلام.. وعدم قابليته للدراسة الموضوعية، نتيجة "لطبيعته المنغلقة على ذاتها" بل إنها تناقض كذلك واحداً من أهم شعارات الإســـلام.. وهـــو ذلك المنادي بضرورة الحوار مع الآخر ممثلا في كل أبناء الإنسانية أيا كانت عقيدتهم أو جنسيتهم ودون أي أحكام مسبقة.

---

(1). طـــيب تيزيني : من التراث إلى الثورة، دار دمشق، ١٩٨٧، الجزء الأول ص ٥٧٣.

(2). محمد البهي: المبشرون و المستشرقون..

ج أهداف الاستشراق:

ولأن ذلك هو، في نظر أولئك المثقفين العرب والمسلمين، الاستشراق تعريفا ومضمونا، فان أهدافه لا يمكن أن تكون بالتالي سوى "السيطرة على الشعوب العربية والإسلامية والازدراء بها في المجالات الدولية"[1]، فمعرفة الاستشراق والمستشرقين للإسلام ولحضارته وتراثه إنما تهدف أساسا لتفتيته ولعزله عن التاريخ[2] وذلك من خلال تغطيته"[3]، ولتمرير وتوطيد المصالح الحيوية للبرجوازية الأوروبية داخل العالم العربي والإسلامي!! وذلك عن طريق تلك التغطية المعرفية وعن طريق المسح الأنثروبولوجي كمقدمة لذلك[4].

إن مثل هذه الأحكام، الجديدة –القديمة، على أهداف الاستشراق إذا كانت لا تعبر،وكما سبق أن أشرنا، إلا عن جزء من هذا الأخير، وليس عنه كله[5]، فإنها تؤكد،في المقابل، الجمود الذي تعيشه الذات العربية

(1). هشام جعيط : أوربا و الإسلام، الترجمة العربية، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠، ص ١١.

(2). ادوارد سعيد : الإستشراق : مرجع سابق، ص ٢٨ – ٣٠.

(3).المرجع السابق.. و أنظر أيضا كتابة الثاني : تغطية الإسلام، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣. و كتابة المترجم إلى الفرنسية عن الإنجليزية : Culture et Impérialisme

(4). المرجع السابق

(5). سهيل فرح " الاستشراق الروسي : نشأته و مراحله التاريخية " مجلة الفكر العربي ١٩٨٣، العدد ٥

الإسلامية نتيجة لقصورها المعرفي المحزن أمام حركية وإبداعية أولئك المستشرقين.

وآيـــة ذلك أننا إذا كنا أول من يسلم أن الاستشراق الذي لم يكن كله وكما سبق أن أشرنا واحدا في مفهومه وفي مضمونه، لا يمكن أن يكون بالتالي واحدا في أهدافه.

ذلـــك مـــا يـــؤكده علـــى أي حال تقسيم البعض من الباحثين العرب اليوم،للاستـــشراق إلـــى استـــشراق تقليدي..وجامد في أطروحاته وفي أهدافه..وإلى استشراق جديد في مسلماته..وفي مضمونه وفي أهدافه[1].

صحيح أن هذا الاستشراق الجديد لم يتجاوز كثيرا النظرة الاستعلائية والمركزية الأوربية التي ميزت الاستشراق القديم ولكنه أصح منه كذلك أن مـــثل تلك النظرة لا يجب البحث عنها في الاستشراق وحده بل يجب الـــبحث عنها كذلك،وفي الوقت ذاته، في مجمل العلاقة أو العلاقات غير المتكافئة التي أصبحت تحكم، ومنذ زمن، الشرق الضعيف والتابع للغرب الأوروبي القوى والمتبوع.

وإذا كان البعض من المثقفين العرب والمسلمين قد حاول تفسير مثل تلـــك العلاقـــة أو العلاقـــات، الاستعلائية والتمركزية باستحالة مقاومة المستـــشرق لـــضغوط أمته تارة[2]، "وبصعوبة انفصال أي خطاب عن

---

(1). محمـــد وقـــيدي: " تطور الصياغة الايديولوجية في الاستشراق"، مجلة دراسات عربية، ١٩٨٢، العدد ٧.

(2). ادوارد سعيد : مرجع سابق

مبادئه " تارة أخرى[1] فان ذلك لا يغير كثيرا من حقيقة تلك العلاقة أو العلاقات.

وإذا كان أولئك المثقفين قد دعوا بالتالي إلى "تجاوز الاستشراق من خلال القطيعة الابستيمولوجية أو المعرفية، مع الفكر الأوروبي الغربي"[2]، ومن خلال تحرير التاريخ والفكر العربي الإسلامي من "صندوق الشرور الأسطوري الاستشراقي[3].. ومن سبخته المالحة، الرجراجة والموبوءة..وذلك باجتثاث جذوره"[4]، فان مثل هذه المطالب تظل مستحيلة في غياب فكر عربي واسلامي قادر على الإنابة عن الاستشراق[5]... وعن القيام بمهمته في مختلف الحقول التي امتد إليها، بل وعن تجاوزه، من خلال طرح مشروع تجديدي كامل وشامل للذات العربية والإسلامية ولفكرها وتراثها، كشرط لتجديد مختلف مناحي حياتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية.

---

(1). برهان غليون: "تحرير التاريخ "مجلة الفكر العربي المعاصر،١٩٨٥، العدد ٣٧.

(2). ادوارد سعيد :مرجع سابق،ص ٢٦٧

(3). البخاري حمانه : "مطلوب من العالم الثالث إعادة بناء ذاته" مائدة مستديرة مع جاك بيرك،(J. Berques)وآخرين " بمناسبة انعقاد المؤتمر الدولي ٢٤ لعلم الاجتماع، الجزائر، نشر في، Journal la république, Oran 31 mars /1 avril 1978

(4). د.حسن حنفي :مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية،القاهرة،١٩، الطبعة الأولى.

(5). المرجع السابق،ص٥.

وفي انتظار مثل تلك الإنابة العربية والإسلامية عن الاستشراق، فان هذه الخطابات الغربية العدائية له لن تكون سوى مطية لكل المزايدين على مسار ومصير هذه الأمة...

إن هذه الحقائق وغيرها حول الاستشراق،هي التي يبدو أن البعض من المثقفين العرب والمسلمين قد بداءوا يدركونها...أخيرا،ويشرعون بالتالي في العمل وفقتها.

ثانيًا: حسن حنفي أو حلم الاستغراب:

في محاولة منه للخروج بالمثقف العربي والإسلامي من مثل هذه الدائرة السجالية المغلقة حول الاستشراق يأتي مشروع الدكتور حسن حنفي الداعي إلى تجاوز تلك الدائرة (المكررة لذاتها منذ قرون)،وذلك من خلال طرحه لمشروعه الاستغرابي الهادف إلى تحويل الغرب الأوروبي بدوره إلى موضوع للدراسة من طرف المثقفين العرب والمسلمين.

إن توقفنا عند هذا المشروع الذي تضمنه كتابة الموسوم "بمقدمة في علم الاستغراب"[1]، أملاه تقديرنا وإعجابنا بهذا المفكر العربي الذي كرس حياته، التي قاربت اليوم السبعين سنة[2]، لتجديد فكر ووعي أمته

(1). المرجع السابق ص١٦.

(2). المرجع السابق ص.١٦

العربية والإسلامية كشرط أولي وضروري لتجديد مختلف مناحي حياتها الدينية منها والدنيوية، السياسية منها والاقتصادية.

كما أن توقفنا بالنقد لمؤلفه،بل لمشروعه التجديدي هذا وللقضايا التي يطرحها وللحلول التي يقترحها لها..لا يجب أن يعني بالتالي أننا نقلل من قيمة هذا المشروع أو من جهود صاحبه،بل أنه يعني فقط محاولة للفت نظـــر صـــاحبه إلى بعض النقاط التي بدت لنا أنها تتهدد عملية تجسيده.

أ. المشروع الاستغرابي الحنفي:

يرى حسن حنفي أن التراث الغربي الأوربي يمثل "الأخر "إزاء "الأنا "العربـــي الإســـلامي الذي لا يزال يعيش على تقليد ذلك الأخر باعتباره مصدر علمه وموضوعه[1].

لـــذلك يطالب حسن حنفي بضرورة قلب هذا الوضع وذلك من خلال إبداع (الأنا) بدلا من تقليد الأخر..وصولا إلى تحويله إلى موضوع للعلم بعـــد أن كـــان مـــصدره[2]" ولأن الاســـتغراب هو بالتالي الوجه الأخر للاستـــشراق، فإن العلاقة فيه بين "الأنا "و"الآخر "إنما هي علاقة تضاد بالتالي وليست علاقة تماثل"[3].

(1). المرجع السابق ص ١٦-١١٠

(2). المرجع السابق ص ١١٠

(3). المرجع السابق ص١٠٢

"فالأنا العربي الإسلامي له بناء شعوري مختلف عن البناء الشعوري "للأخـــر"[1] وحـــضارة الغرب نشأت بالطرد المستمر من المركز، وهي بـــدون ماهـــية مسبقة[2] لذلك يطغى عليها، (خاصة علومها الاجتماعية والإنسانية) المنهج الماركسي" غالبا..

أما الحضارة الإسلامية فهي على العكس من ذلك تماما، إنها حضارة مركزية، ماهوية، ولأنها كذلك فان وعيها ليس تاريخيا، بل علمويا، أي أن تاريخهـــا تاريخ وعي من خلال علومها الدينية بالذات، متمثلة أساسا فـــي الفقه والأصول والكلام..(والى حدّ ما في التصوف)، (وهي العلوم التـــي يجب إعادة بنائها انطلاقا من الوحي،لتحقيق مثل ذلك التجديد)[3]، وليس من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية الأوربية الغربية[4].

لقـــد حـــولت الحضارة الأوروبية الغربية،نتيجة لطبيعتها الاستعلائية والعنـــصرية[5] ولتكوينها،ثقافتنا العربية والإسلامية وغيرها من الثقافات غيـــر الأوربـــية الأخرى،إلـــى وكالات لها ولأيديولوجياتها الاشتراكية والماركسية والليبرالية والوجودية والبنيوية "...الخ[6].

---

(1).المرجع السابق ص ٢٤-٣٢-١٠٢

(2).المرجع السابق ص ٣٥-١٠٢

(3).المرجع السابق ص٣٥-١٠٢

(4).المرجع السابق ص٣٥-١٠٢

(5).المرجع السابق ٥١٨.

(6). المرجع السابق ٥١٨.

غيـــر "أن الحـــضارة الأوروبـــية الغـــربية ليـــست،وكما يـــزعم أصحابها،الحـــضارة الإنسانية الأولى، أو الوحيدة، فالحضارة بدأت قبل ذلك،من الشرق وستعود إليه مرة أخرى "[1].

"والحـــضارة الأوروبية حضارة مفرقة، عكس ما يدعيه البعض من أبـــنائها،لذلك فـــان تاريخها والتأريخ لها يختلف عن تاريخ وعن تأريخ الحـــضارة العربية الإسلامية"[2]، ذلك أن تاريخ "الأنا" الإسلامي يتمثل، فـــيما يـــرى حسن حنفي، في ثلاثة مراحل لكل منها سبعمائة سنة..وقد انـــتهت مراحل الازدهار الأولى للحضارة الإسلامية. كما انتهت مراحل انحطاطهـــا الثانـــية، أو أوشـــكت، وبدأت مرحلة ازدهارها من جديد[3]

(1).المرجع السابق ٥١٨

(2).المرجع السابق ص٥-١١

(3).المرجع السابق ص٥-١١

المعلن عن افتكاكها للمشعل من الحضارة الغربية(*)، التي تمثل الفلسفة الظاهرية نهايتها ونهاية العقل الأوروبي الغربي الذي كونها(1).

هكذا سيتحقق أفول الحضارة الأوروبية وصعود الحضارة الإسلامية وعالميـــتها..مـــن جديد،وذلك من خلال إعادة إبداع "الأنا " انطلاقا من الوحـــي لا من العقل..ومن تلك العلوم التي تولدت عنه (الفقه الأصول، الكلام) و..التصوف.

فالإســـلام دين توحيد..والوحي يمثل المركز الثابت الذي نشأت حوله تلك العلوم وغيرها من العلوم الإسلامية التراثية الأخرى(2).

والمهمـــة الأساســـية والنهائية لهذه العلوم وللباحثين فيها، تتمثل في تكـــوين أمة إسلامية..(وعربية) ناهضة لا تستطيع أمة أخرى أن تحتل

(*). إن دعـــاوى انهـــيار الغـــرب الأروبـــي وحضارته التي بداها أوزوالد شبنغلر (O.Spengler) مـــنذ الحـــربين العالميين والتي تواصلت بعده.. على يد كل من هوسرل وهيدغر (M.Heidegger) وهابرماس (J.Habermas) وغيرهم، والتي يحـــاول د.حسن حنفي بناء مشروعه الحضاري هذا انطلاقا منها، لا تعني موت حـــضارته أو تواريها عن مسرح التاريخ، كما حدث الك للعديد من الحضارات ومـــن ضـــمنها الحـــضارة العربية الإسلامية، بل تعني فقط توارى لبعض القيم الإنسانية والأخلاقية نتيجة لطغيان النزعة التكنولوجية والعلمية عليها.

(1). المرجع السابق ص٥-١١

(2). أحمـــد عطية :جدل الأنا والأخر (صدر عن عدد من المفكرين العرب بمناسبة بلوغ د.حسن حنفي سن الستين) مكتب مد بولى،١٩٩٧ القاهرة.

أرضها أو تعتدي على كرامتها كما يحدث الآن بالنسبة للأمة العربية والإسلامية [1].

ويتم هذا الإنجاز الحضاري الجديد، فيما يرى حسن حنفي، لا من خلال الانتقال من جمال الدين الأفغاني إلى الخميني..أو من خلال الانتقال من محمد عبده إلى جمال عبد الناصر، بل من خلال الانتقال من كانط (E.kant) وهيغل (Hegel) إلى فيخته(Fichte) فيلسوف المقاومة ومن شيلر(Shiller) إلى دوستوفسكي(Dostoivesky)[2].

ذلك باختصار شديد، هو المشروع الحنفي الإستغرابي، وهو المشروع الذي أثار لدى المثقفين العرب الكثير من الأسئلة ومن التساؤلات[3].لذلك فإننا سنكتفي هنا بالتوقف هناعند اثنين منها فقط، وهما المتعلقين: أولا بمفهومه للاستغراب، وثانيا بالمنهج الذي طرحه لتجسيده.

ب. عن المفهوم الحنفي للاستغراب:

إننا لن نكرر هنا كل النقد الذي تعرض له مفهوم حسن هذا للاستغراب.. فقد كفانا عناء مثل هذه المهمة باحثون عرب[4]، ولكننا سنعرض فقط لنقاط أساسية أثارها ذلك المفهوم من بين ما آثار..

---

(1). أحمد ابن فضلان: رسالة في الروس،نشرها مترجمة إلى الألمانية "فراهن " ١٨٢٣، تم نشرتها وزارة الثقافة السورية،١٩٧٧

(2). أحمد عطية :جدل الأنا والأخر (محمود أمين العالم)،ص١٦١

(3). المرجع السابق (د.يوسف زيدان) ص١٤٧

(4).Ed. Husserl : la crise de l'humanite europeenne et la philosophie,.traduction française. P.Ricoeur.paris. Aubier 1987

أ- حين يطلق حسن حنفي على مشروعه هذا كلمة"علم"(مقدمة في علم الاستغراب)، فانه يقع في خلط بين مفهوم العلم بالنسبة للعلوم التجريبية وبين مفهومه بالنسبة للعلوم الاجتماعية والإنسانية عامة.. فالاستغراب، مثل الاستشراق، ليس علما، ولا يمكن أن يوصف بمثل تلك الصفة، لأن الباحث والمبحوث فيه واحد:وهو الإنسان وهذا عكس تلك العلوم التجريبية الأخرى، حيث الباحث (الإنسان) شيء، وموضوع بحثه شيء آخر.

ب- وحين يصف حسن حنفي مشروعه هذا بالجديد " أو "بالمحاولة الأولى في هذا الميدان "فانه ينسى أو يتناسى محاولات مماثلة قام بها مفكرون عرب ومسلمون، وهذا ابتداء من ابن فضلان[1]، وانتهاء بالدكتور محمد رحبان، (ومرورا بكل من البيروني وابن خلدون والطهطاوي وخير الدين التونسي، وغيرهم)، الذي طرح نفس المشروع الاستغرابي، تقريبا،على المؤتمر الإسلامي في "لاهور" سنة ١٩٥٧.

ج- وأخيرا وليس أخرا، فإننا نود أن نذكر حسن حنفي أن الغرب قد درسنا من موقع قوة، ونحن اليوم في موقع ضعف، كما أن الغرب قد درسنا بعد أن تبلور مفهوم الذات والهوية والحرية عنده..وهو ما لم يتحقق بعد بالنسبة إلينا، ونحن الذين لا زلنا نبحث عن ذاتها وعن هويتنا وسط أتون العشائرية والجهوية.. ووسط أغلال التبعية والتخلف والفقر والجهل والاستبداد السياسي والديني.

---

(1). حسن حنفي :مقدمة في علم الاستغراب،ص١٧٣-١٨٢.

ولأن ذلك هو حالنا فان مشروع حسن حنفي الاستغرابي هذا، المعتمد في تسمياته ومفاهيمه وطروحاته ومنهجيته، على نفس الغرب الأوروبي الذي يريد تحويله إلى موضوع لدراسته، لا يفعل بالتالي سوى تقديم "استشراق معكوس"[1] يبقى فيه الغرب مصدر الاستشراق ومصدر الاستغراب،فاعلا بالتالي في المرتين[2] في الذات العربية.

ثالثًا: عن المنهجية الاستغرابية الحنفية:

وكما يأخذ حسن حنفي في مشروعه الاستغرابي هذا مصطلحاته ومفاهيمه عن الغرب الأوروبي، فانه يأخذ كذلك منهجيته منه..وليس من ذلك التراث الإسلامي الذي يجب أن يشكل لديه منطلق الاستغراب وأداته..وهدفه..

هكذا يتبنى سن حنفي الظواهرية (la phénoménologie) (هوسرل ت ١٩٣٨) (Ed.Husserl)، كمنهج لعلم الاستغراب، رافضا بذلك أي قطيعة ابستمولوجية مع الفكر الغربي وذلك بحجة "أن تراث الآخر "تابع من تراث "الأنا "من جهة، "بأن الظواهرية تيار استشراقي روحي يعتمد أساسا،مثل التراث الإسلامي على الوعي لا على العقل..وبأن كل ما جاء بعدها إنما هو مجرد تطبيقات لها "من جهة أخرى وإذا كنا نقر أن الظواهرية قد أثرت في تطور الفكر الأوروبي المعاصر، فإنها لم تكن مع ذلك الفلسفة الوحيدة

---

(1). حسن حنفي :مقدمة في علم الاستغراب،ص١٧٣-١٨٢.

(2). حسن حنفي :دراسات إسلامية (لماذا غاب مبحث الإنسان والتاريخ في تراثنا القديم ؟)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١ص٣٩٣-٤٥٦.

التي فعلت ذلك؛ فالبرغسونية (le bergsonnisme) مثلا، كان لها نفس التأثير تقريبا على ذات الفكر الأوروبي الغربي.

رابعًا: خاتمـــة

أ- إن اعتـــبار حـــسن حنفـــي للوعي كأساس وحيد للظواهرية يدحضه "هوسرل ذاته، الذي يؤكد أن الفلسفته، أو منهجه الفلسفي هذا إنما جاء كرد فعل على أزمة الوجود الأوروبي "، "وهي الأزمة التي لا يمكن أن تعرف، وكما يضيف، سوى نهايتين: إما أفول أوروبا والاغتراب نتـــيجة لتـــصورها الـــضيق للعلم.. وهو التصور الذي يلغي، وباسم الموضوعية، من مجاله الإنسان، أو إعادة إحياء أوروبا..عن طريق إعـــادة الفلـــسفة بواســـطة "بطولة العقل المتجاوز لكل نزعة علمية طبيعية".

فهـــل وصـــل العرب والمسلمون إلى نفس التطور العلمي الأوروبي الغربي حتى يلجأوا بدورهم إلي الظواهرية؟ وهل يمكن أن يكون العلم، بمفهومه الأصولي عند حسن حنفي، وأيا كان تطوره، هو المقابل، وكما يـــذهب، لمفهـــوم ذلـــك العلـــم التجريبـــي الأوروبي؟. إن أزمة العرب والمسلمين ليست أزمة وليدة التقدم بل أزمة وليدة التخلف.

ب- لـــذلك فان حسن حنفي حينما يتخذ (الوعي الظواهري الذي لا يحقق نـــزعته المتعالـــية (Transcendentale)، أو المفارقة إلا من خلال اختصاره للواقع (La réduction) ولمكوناته، ووضعه للعالم الواقعي

بـــين قوســـين (EPOKHE) كأســـاس للتعامل مع التراث العربي الإسلامي، الذي يشكل، في نظره، مادة وأداة الاستغراب)، ينسى، أو يتناســـى أن مـــثل هذا الوعي الظواهري يناقض، بالرغم من طابعه القـــصدي (L'intentionnalité)، روح الإســـلام الذي يعطي الأولوية للواقـــع، ولـــيس للخيال،وللـــباطن ولـــيس للظاهر، وللجماعة وليس للفرد...

لذلك فان حسن حنفي حينما يتخذ الظواهرية كمنهج له لدراسة الإسلام ولإعـــادة تجديد تراثه فانه يناقض كلا من الإسلام ومن الظواهيرية على حدّ سواء.

ج- ثـــم كـــيف يـــسمح حـــسن حنفي لنفسه بتوظيف الوعي الظواهري الأوروبـــي فـــي علمه الإستغرابي هذا و هو الذي يؤكد أن أبناءه أو مكوناته مختلفة عن بناء و مكونات الإنسان الإسلامي.

د- و أخيـــرا، و لـــيس آخرا، كيف يتصور حسن حنفي تحقيق مثل تلك الثورة التجديدية الإسلامية من طرف الإنسان العربي و الإسلامي و هو الذي يؤكد أنه " لا تاريخ له لأنه منغلق في حاضر لا زمان له، و لا ماضي ولا مستقبل له كذلك وذلك نظرا لانعدام استقلال العقل (و لـــيس الوعـــي التي يتحدث عنه في مشروعه هذا)، و الذي أدى إلى إسقاط التاريخ من وعيه (أي الإنسان العربي الإسلامي) وإلى تحويل دوره فيه (أي في التاريخ) إلى مجرد دور العابر له ".

إن هـــذه الملاحظات على مشروع حسن حنفي الإستغرابي لا تهدف، (بالـــرغم مـــن طابعـــه الخيالـــي الذي يجعله لا يختلف في الوسائل و المـــضمون و الأهـــداف عن العديد من المشاريع التجديدية المنطلقة من الماضـــي و لـــيس مـــن الحاضـــر، وتحدياته (وفي مقدماتها المشاريع الإســـلامية)).. إلى التقليل من جهود صاحبه أو إلى التشكيك في صدق انـــشغاله بهمـــوم أمـــته العربية و الإسلامية، بل أن هدفها الإسهام في إنجاحـــه.. من خلال لفت نظر صاحبه إلى بعض العقبات و التناقصات التي تجعل كل أمل لتجسيده، في شكله الحالي هذا.،.. حلما لا يزيد، في الـــنهاية، ومـــثلما تفعـــل اليوم العديد من المشاريع العربية، تلك الهموم العربية والإسلامية إلا تفشيا و عمقا.

لـــذلك فإنـــنا نأمـــل أن يتمكن تلامذة حسن حنفي، وهم كثيرون، من الوصـــول بمـــشروعه هذا إلى مداه، مثلما فعل تلامذة هوسرل بمشروع أستاذهم، ولا يزالون يفعلون.